

أعراس
تأليف : ألبير كامو
ترجمة : جورج طرابيشي

اعراس

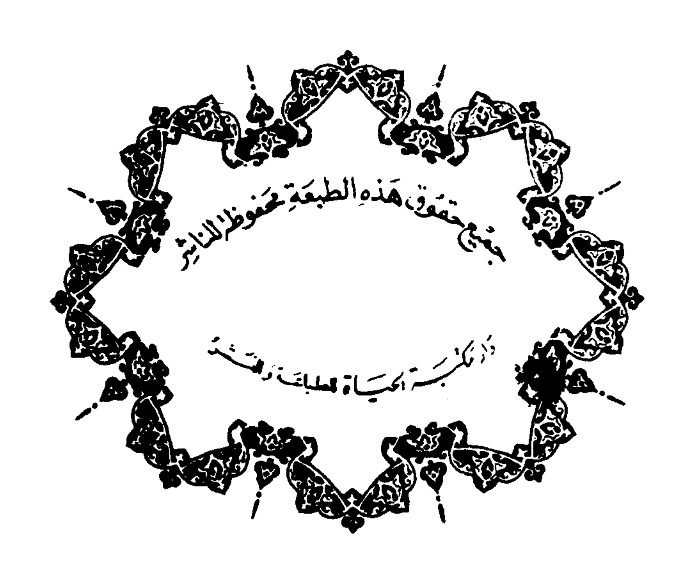
أعراس

تأليف : ألبير كامو

ترجمة : جورج طرابيشي

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان



جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

مقدمة الناشر

يمر الانسان في هذه الحقبة من الزمن ، التي استطاع فيها ان يغزو الفضاء، بظروف صعبة ، حيث تتقاذفه تيارات فكرية مختلفة ، ونظريات علميـــة جديدة ، تجعله ملزماً بالإطلاع على اكبر مجموعة من الآراء القيّمة في شؤون الحياة، ليستطيع اختيار الصالح والملائم منها ، كي يصقل ما لديه من نظريات ويقوّم المنحرف ويعتدل بالمتطرف منها .

وإن « دار مكتبة الحياة » التي تعي رسالتها الثقافية وتـــدرك معنى مسؤوليتها الاجتماعية ، ما برحت تقدم لقراء العربية ، الكثير من المؤلفات العالمية ، وأغناها بالفكر الانساني واحفلها بالعمق في عرض مشاكل العصر وطرق حلولها ، والتي يجد القارىء فيها خلاصة ما يحتاجه من الثقافة الفكرية العالمية ، لأنها تحتوي على اجود المؤلفات التي تتصدر الفكر الانساني وتوجه به المجتمعات والثقافات الفعالة .

وقد اعتمدت الدار خـــيرة المترجمين لنقلها الى اللغة العربية محافظة بهذا النقل على النصوص كاملة ، هادفة بذلك الى رفع المستوى الثقافي عند ابنـــاء امتنا العربية .

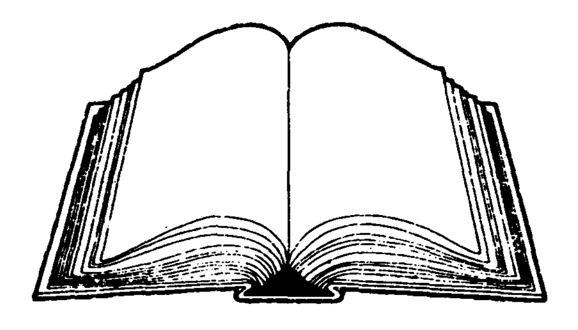
ونحن إذ نعيد طبع هذا الكتاب القيم نهدف من ذلك إلى خدمة أبناء هذا

الجيل من الشعب العربي بسبب ما أحدثته آثار هذا المؤلف من توعية للجيل المتعطش إلى ارتشاف مناهل الفكر الحديث ، خصوصاً منها مالاءم أمزجته، وما عبّر عن عواطفه وأحاسيسه ، وليس كألبير كامو كاتباً عصرياً استطاع أن ينفذ إلى أعماق النفوس بما أوتي من قدرة على سبر أغوار الحياة الانسانية ، وما له من براعة في التصوير الواضح لخفايا وأسرار الطبيعـــة حتى جعل من صوره الحية ألسنة فصيحة تخاطب مُشاهِدَها، باعثةً في فكره يقظةً ، وفي عقله نوراً وفي نفسه بهجة .

إن الرواج الذي لقيه هذا الكتاب شجعنا وحفزنا على إعادة طبعه لنقدم إلى جيلنا العربي الناهض المتوثب مزيداً من هذا الغذاء الروحيّ الناقع المفيد. ولقد توخينا في هذه الطبعة الجودة والأناقة وحسن الاخراج أكـــثر من الطبعة الأولى ليكون بهجةً للعين فوق غذاء الروح .

والله من وراء القصد وهو وليّ التوفيق .

١٩٧٠/٤/٢١ — الناشر





تنبيه من الناشر الفرنسي

كتبت هذه المقالات الأولى ، التي نعيد طبعها اليوم ، بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧ ، ثم طبعت في عدد صغير من النسخ عام ١٩٣٨ في مدينة الجزائر . وهذه الطبعة الجديدة لا تدخل عليها أي تعديل ، رغم أن مؤلفها لم يكف عن اعتبارها مقالات ، بالمعنى الدقيق والحصري للفظة .



خنق الجلاد الكردينال كارافا بخيط حريري فانقطع . فاضطر الى معاودة ذلك مرتين . نظر الكردينال الى الجلاد دون أن يتنازل فيفوه بكلمة واحدة .

ستندال

« دوقة باليانو »

أعراس في تيبازه




في الربيع ، تيبازه تسكنها الآلهة ، والآلهة تتكلم بحديث الشمس ورائحة الافسنتين ، والبحر المدرع بالفضة ، والسماء الزرقاء اللاظية ، والخرائب الملتحفة بالازهار ، والنور الذي يتدفق تدفقاً عظيماً بين أكوام الحجارة . في أويقات معينة ، يكون الريف أسود من الشمس . تحاول العين عبثاً ان تلتقط شيئاً آخر غير قطرات النور والالوان التي ترتعد على حافة الاهداب. تخدش رائحة النباتات العطرية العابقة الحلق وتخنق في الحر الشديد.

لا أكاد أرى ، في أقصى المشهد ، الكتلة السوداء لجبل شنوة الذي تمتد جذوره في التلال المحيطة بالقرية ، ويهتز بايقاع واثق ثقيل ليتناءى فيقبع في البحر .

نصل الى القرية المنفتحة على الخليج. ندخل الى عالم أصفر وأزرق تستقبلنا فيه تنهدة أرض الصيف في الجزائر المعطار الواخزة . جدران الفيلات ، في كل مكان ، تتعرش عليها نباتات البامية بحمرتها التي ما تزال باهتة ، وحواش رقيقة من أزهار السوسن الطويلة الزرقاء . الحجارة كلها ساخنة . عندما نهبط من الاوتوبيس المسجدي اللون ، يكون الجزارون في سياراتهم الحمراء يقومون بجولتهم الصباحية ونفير أبواقهم ينادي السكان .

الى يسار المرفأ ، يفضي درج من الحجارة الجافة الى الخرائب بين أشجار

المصطكى والرتم . يمر الدرب أمام منارة صغيرة ليغوص فيما بعد في قلب الريف . وبدءاً من أسفل المنارة ، تنحدر نباتات غليظة لحمية الأوراق ، أزهارها بنفسجية وصفراء وحمراء نحو الصخور الأولى التي يرشفها البحر بخفيف كحفيف القبلات . ننظر ،وقوفاً في الريح الخفيفة ،تحت الشمس التي تلفح جانباً واحداً من أوجهنا ، الى النور يهبط من السماء ، الى البحر لا يجعده غضن واحد ، والى ابتسام أسنانه الوضيئة . قبل أن ندخل الى مملكة الخرائب ، نلقي نظرة متفرجة أخيرة .

نسير بضع خطوات ، فيطبق الافسنتين على خناقنا صوفه الرمادي يغطي الخرائب على مد النظر . أريجه يختمر تحت الحر . ومن الأرض الى الشمس يصعد على كل مدى العالم خمر سخي تترنح له السماء . نسير الى لقاء الحب والشهوة . لا نسأل دروساً ، ولا نبحث عن الفلسفة المريرة التي تطلب لأجل العظمة . كل شيء يبدو لنا باطلاً ، ما عدا الشمس ، والقبل والعطور لوحشية . أما أنا ، فلا أسعى الى أن أكون وحدي . لقد أتيت الى هنا غالباً مع من أحبهم وكنت أقرأ على أساريهم الابتسامة الوضاء التي يشرق بها وجه الحب . انني أترك هنا لغيري النظام والاعتدال . انه فجور الطبيعة والبحر اللامحدود الذي يأسر خلاياي كلها . في زواج الخرائب والربيع هذا ، استحالت الخرائب صخور ، وعادت الى امها الطبيعة ، وقد تجردت من ملمسها الصقيل الذي فرضه عليها الانسان . لقد أفاضت الطبيعة بالأزهار ، احتفالاً بعودة هاتيك البنات الضالات . بين حجارة الساحة ، يطل عباد الشمس برأسه المستدير الأبيض ، وتسفح أزهار أبر الراعي الحمراء دمها على ما كان منازل ، معابد ، وساحات عامة . وكأولئك الرجال الذين يعيدهم العلم الكثير الى الله ، عادت أعوام كثيرة بالخرائب الى بيت امها . اليوم أخيراً

يتركها الماضي ، ولا شيء ينسيها هذه القوة العميقة التي تعود بهـــا الى قرار الأشياء الخربة .

ما أكثر ما أمضيت من ساعـات اسحق الافسنتين ، أداعب الخرائب ، أحاول أن أتنفس على أيقاع واحد مع تنهدات العـالم اللجبة ! أفتح عيني ، وأنا منكفىء بين الروائح الوحشيـة وموسيقى الحشرات المتناومـة ، وأفتح قلبي ، اذ كنت الى صلب الشنوة المتـــين ، يطمئن الى يقين غريب . كنت أتعلم كيف أتنفس ، وكنت أحقق نفسي وأندمج . كنت أتسلق التـــلال الواحد تلو الآخر ، فأجد في كل منها مكافأة احتفظ لي بها ، كذلك المعبد الذي تقيس أعمدته سباق الشمس والذي أرى منه القرية بكاملها ، بجدرانها البيضاء والوردية وشرفاتها الخضراء . وكذلك أيضاً تلك الكنيسة على التـل الشرقي : لقد احتفظت بجدرانها ، وفي دائرة كبيرة حولهـا تصطف نواويس منبوشة معظمها لم يتحرر بعد من الأرض التي لا زال يشكل جزءاً منهـا . لقد ضمت أمواتاً . أما الآن ، فتنبت عليها القويسة والفجل البري . كنيسة سانت – صلصا مسيحية ، لكن في كل مرة ننظر فيهـــا من فتحة ، تأتي الينا أنشودة العالم : تلال مزروعة بالصنوبر والسرو ، أو البحر الذي يخاتل كلابه البيض على بعد عشرين متراً . التل الذي يحمل سانت – صلصا مسطح في قمته والريح تهب بقوة أشد من خلال الأروقة . تحت شمس الصباح ، تتماوج سعادة كبيرة في الفضاء .

ما أفقر من هم بحاجة الى أساطير . مهمة الآلهة هنا أن تكون متكآت أو صوى في سباق الأيام . أصف وأقول : « هذا أحمر ، هذا أزرق ، هـذا أخضر . هوذا البحر ، والجبل ، والزهور » . ومـا حاجتي الى الكلام عن

ديونيسيوس[1] لأقول انني أحب أن أسحق كرات المصطكى تحت أنفي ؟ بل أهو ديميتير[2] صاحب هذا النشيد الذي سأفكر فيه فيما بعد دون قسر : « سعيد من بين الأحياء على الأرض من رأى هذه الأشياء » . ان نرى، ونرى على هـــذه الأرض ، كيف ننسى الأمثولة ؟ وبدلاً من أسرار ايلوزيس[3] ، يكفي أن نتأمل . هنا بالذات ، أعرف انني لن أتقرب أبداً من العالم ما فيه الكفاية . يتوجب علي أن أكون عارياً ثم أن أغوص في البحر ، وأنا لا أزال أعبق بروائح الأرض ، وأن أغسل هـــذه في ذاك ، وأن أعقد على جلدي العنـاق الذي يتنهد اليه البحر والأرض شفة الى شفة منذ زمن بعيد جداً . ومع دخولي في المـــاء ، يكون الانكماش ، وصعودُ دبقٍ بارد صفيق ، ثم أغوص والطنين في اذني ، وأنفي يسيل وفمي مرٌ — أسبح وذراعاي مطليتان بالمـــاء تعومان فوق البحر لتهبها الشمس لوناً ذهبياً وتلتويان بكل ما في عضلاتها من قوة وانزلاق الماء على جسمي وعناق ساقيّ اللجب للموج - والافق غائب . وعلى الشاطىء أتهالك على الرمل ، مستسلماً للعالم ، منكفئاً في ثقل جسدي وعظمي ، صريع الشمس ، القي ، بين الفينة والأخرى ، نظرة الى ذراعي فتنكشف القطرات فوق الجلد الجاف ، مع انسياب الماء ، عن الزغب الأشقر وغبار الملح .

انني أفهم هنا ما يسمى بالمجد : الحق في الحب الى ما لا نهاية . ليس في هذا العالم إلا حب واحد . فعناق جسد امرأة هو أيضاً عناق لهـــذا الفرح الغريب الذي يهبط من السماء الى البحر . بعد قليل ، لحين سألقي بنفسي بين

---

(١) آله الخمر عند اليونان .

(٢) آله الارض عند اليونان .

(٣) معبد للآله ديميتيس قريباً من آثينا .

الأفسنتين لأدخل أريجه الى جسدي ، سأعي أنني ، رغم كل الآراء المسبقة ، احقق حقيقة هي حقيقة الشمس وستكون ايضاً حقيقة موتي . وبمعنى ما ، انها حياتي التي أقامر بها هنا ، حياة لا طعم الحجارة الساخنة ، مليئة بتنهدات البحر والزيزان التي أخذت تغني الآن . النسيم رطب والسماء زرقاء . انني أحب هذه الحياة حباً لا تكلف فيه وأريد أن أتكلم عنها بحرية : انها تمنحني كبريائي لكوني انساناً . ومع ذلك ، ما اكثر ما قيل لي هذا : لا شيء يدعو للفخر . بلى ، ثمة ما يدعو الى ذلك : هـــذه الشمس ، هذا البحر ، قلبي المتوثب بالشباب ، جسدي بما فيه من طعم الملح ، والمدى اللامحـــدود الذي يلتقي فيه الحنان والجد في الصفرة والزرقة . فلأقف قوتي وطاقتي على تحقيق ذلك . كل شيء هنـــا يتركني بكراً ، فأنا لا أتخلى عن شيء من ذاتي ، ولا أتحجب بأي قناع : يكفيني أن أتعلم بصبر علم الحياة الصعب الذي يفوق كل فنون الحياة.

كنا نعود ، قبل الظهر بقليل ، من الخرائب الى مقهى صغير قرب المرفأ. رأسي يطن بصنوج الشمس والالوان ، ما ارطبه من استقبال ، اعني استقبال القاعة الغارقة في الظل ، وكأس النعنع الأخضر البارد الكبيرة ! في الخارج، البحر ، والطريق المتأججة بالغبار . احاول ، وانا جالس الى المائدة ، ان التقط بين اهدابي الطارقة سطـــوع السماء البيضاء من الحر المتعدد الالوان . نبسط جميعاً ، وأوجهنا مبللة بالعرق ، لكن اجسامنـــا رطبة تحت القماش الخفيف الذي يوشحنا ، التعب السعيد ليوم عرس مع العالم .

الطعام رديء في هـــذا المقهى ، لكن الفاكهة وافرة – وعلى الأخص الدراق الذي نأكله نهشاً ، فيسيل سلافه على ذقوننا . اصغي ، وأسناني مطبقة على الدراقة ، الى وجيب دمي الكبير يتصاعد حتى أذني ، وانظر بملء عيني. انه صمت الظهر المطبق ، على اديم البحر . ان لكل كائن جميـــل كبرياءه

الطبيعية بجماله والعالم اليوم يترك كبرياءه تنضح من كل الجهات . فلم انكر ، امامه ، فرح الحياة ، وإن كنت اعرف أن ليس كل شيء في الحياة فرحاً ؟ لا عار على الانسان ان يكون سعيداً . لكن الاحمق اليوم ملك ، واني لأسمي احمق من يخاف من المتعة . ما اكثر ما حدثونا عن الكبرياء : أتعرفون ، انها خطيئة ابليس . كانوا يصيحون : خذ حـذرك ، فسوف تهلك وانت في عنفوان الحياة . ثم علمت بالفعل ان بعضاً من الكبرياء ... لكني في اويقات اخرى لا استطيع منع نفسي من المناداة بكبرياء الحياة التي يتآمر العالم بأسره على منحي اياهـا . ففي تيبازه ، «أرى» تعادل «اؤمن» ، وأنا لا اصر على انكار ما تستطيع يدي ان تلمسه وشفتاي ان تداعباه . انني لا اشعر بالحاجة الى ان اصنع من ذلك آية فنية ، بل إلى أن أروي ، وهذا أمر آخر . تيبازه تبدو لي كتلك الشخصيات التي توصف لتدل دلالة غير مبـاشرة على وجهة نظر عن العالم . انها ، مثلها ، تشهد ، وبرجولة . انها اليوم شخصية قصتي ، ويخيل الي ان نشوتي بمداعبتها ووصفها لن تكون لها نهاية . ثمة وقت للحياة ووقت للشهادة على الحياة . وثمة ايضاً وقت للخلق ، وهـذا أقل طبيعية . يكفيني أن أعيش بكل جسدي وأن اشهد بكل قلبي ، ان أعيش تيبازه ، واشهد ، ثم ستأتي الآية الفنية فيما بعد . إن في هذا الحرية .

* * *

لم ابق قط في تيبازه اكثر من نهار واحد . فهناك دوماً لحظة تشعر فيها انك رأيت مشهداً ما اكثر ممـا ينبغي ، تماماً كما ان رؤيته بما فيه الكفاية تقتضي وقتاً طويلا . ان الجبال ، السماء ، البحر ، لهي كأوجه تكتشف فيها الجدب أو العظمة ، لكثرة ما تنظر بدل أن ترى . لكن كل وجه يجب أن يتحمل لكي يكون معبراً ، بعض التجديد . واننا لنشكو من اننـا سئمنا

بسرعة كبيرة حين كان يجب أن نعجب من ان العالم يبدو لنا جديداً لمجرد انه نسي .

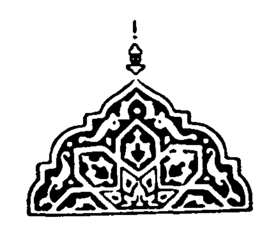
عند المساء ، كنت ألجأ الى قسم من الحديقة أكثر تنظيماً ، مهدت أرضه الى مرج ، على حافة الطريق العام . وكان الفكر يهدأ ، والجسم المسترخي يتلذذ بالصمت الداخلي الذي يلد من الحب المرتوي ، عند الخروج من جلبة المطور والشمس ، في نسيم المساء العليل . كنت قد جلست على مقعد . ورحت أنظر الى الريف يزداد جمالاً وتناسقاً مع افول النهار . كنت مشبعاً . كانت فوقي شجرة رمان تتدلى براعم زهرها، مكومة مضلعة كعقبات صغيرة مطبقة تضم أمل الربيع كله . كان خلفي عبيثران ولم أكن أشعر به إلا من عطر الخمر . كانت هناك تلال تلوح بين الأشجار، والى بعيد شريط من البحر تجثم فوقه السماء بكل حنانها ، كشراع ساكن ، كان في قلبي فرح غريب ، فرح لا يتأتى إلا من الضمير المرتاح . ثمة شعور يعرفه الممثلون حين يدركون أنهم أدوا أدوارهم كما يجب ، أي حين يدركون ، بالمعنى الأدق ، انهم طابقوا حركاتهم مع حركات الشخصية الخيالية التي يجسدونها انهم دخلوا بمعنى ما في رسم أعد مقدماً فجعلوه بضربة واحدة يعيش ويخفق بقلبهم . كان هذا على وجه التحديد ما أشعر به : لقد أديت دوري على أتم ما يرام . لقد قمت بمهنتي كانسان ، ولم تكن ممارستي الفرح طوال نهار طويل تبدو لي نجاحاً استثنائياً ، بل تحقيقاً منفعلاً لحالة تحتم علينا ، في بعض الظروف ، ان نكون سعداء . عندئذ نهتدي الى العزلة ثانية ، لكنها عزلة الارتواء هذه المرة .

* * *

الأشجار الآن عامرة بالعصافير . الأرض تتنهد ببطء قبل أن تتسربل

الظلمة . عمـا قريب ، مع النجمة الأولى ، سيرخي الليل سدوله على مسرح لعالم . وستنكفىء آلهة النور الوضاءة الى موتها اليومي . ولكن آلهة اخرى ستأتي . وهي ، وان كانت أشد إظلاماً ، قد ولدت وجوهها التالفة مع ذلك في قلب الأرض .

كان تكسر الأمواج المتواصل على الرمل يصلني ، الآن على الأفـل ، من خلال فضاء رحب يرقص فيه غبار الطلع الذهبي . البحر ، الريف ، الصمت، عطور هذه الأرض ، كنت امتلىء بحياة اريحية وأعض على ثمرة العالم الذهبية ، وقد بلبلني الاحساس بسلافها السكري القوي يسيل على شفتي. كلا ، لم تكن الأهمية لي ، ولا للعالم ، بـل فقط للتوافق والصمت الذي يولد حبي للعالم ، حب أشفق عليه من المطالبة به لنفسي وحدي ، ادرك وافخر بأنني اتقاسمه مع عرق كامل ، عرق ولد من الشمس والبحر ، عرق حي وذواقة ، يستمد عظمته من بساطته ، ويوجد ابتسامته المتواطئة ، وهو منتصب الى الشطآن ، الى ابتسامة سماواته الوضيئة .



الريح في جميلة

ثمة أمكنة يموت فيها الفكر لتولد حقيقة هي نفي له بالذات . فحين ذهبت الى جميلة ، كان هناك ريح وشمس ، لكن هذه قصة أخرى . ما يجب أن أقوله بادىء ذي بدء هو أنه كان يخيم عليها صمت كبير ثقيل لا صدع فيه – شيء ما أشبه بتوازن ميزان. صيحات طيور ، الصوت المكتوم لنادي ذي ثلاث فتحات ، وطء ماعز ، لجبة قادمة من السماء ، كثير من هذه الأصوات التي تطبع هذه الأمكنة بالصمت والأسى. بين الفينة والفينة ، كان اصطفاق جاف ، وصيحة حادة ، يشيران الى طيران طير جاثم بين الصخور. كل درب مسلوك، الممرات بين اشلاء البيوت ، الشوارع الكبيرة المبلطة تحت الاعمدة الساطعة ، الساحة العريضة بين قوس النصر والمعبد على رابية ، كل شيء يفضي الى الشعاب التي تطوق جميلة من كل الجهات، كلعبة ورق مبسوطة على سماء لا حدود لها . وأجد نفسي هنا متحفزاً ، مجابهاً الحجارة والصمت كلما تقدم النهار وتعاظمت الجبال واستحال لونها بنفسجياً . لكن الريح تهب على هضبة جميلة . وفي هذا الخليط الكبير من الريح والشمس الذي يغرق الخرائب بالنور ، يتكون شيء ما يمنح الانسان ايقاع اتحاده بالعزلة . صمت المدينة الميتة .

الذهاب الى جميلة يقتضي وقتاً طويلاً . انها ليست مدينة تتوقف فيها ثم تتجاوزها . انها لا تفضي الى أي جهة ولا تنفتح على أي بلد . انها مكان يُرجع منه . المدينة الميتة تقع عند منتهى طريق طويل متعرج يبدو وكأنه يعد بها عند كل منعطف من منعطفاته فيبدو لذلك أكثر طولاً .

حين يبرز اخيراً على هضبة باهتة الألوان ، هيكل جميلة العظمي المائل الى الصفرة كغابة من رفات الموتى المدفون بين جبال علية ، فان جميلة ترمز عندئذ إلى امثولة الحب والصبر التي يمكنها وحدها أن تقودنا إلى قلب العالم

النابض . هناك ، بين بضع أشجار ، والعشب اليابس ، تحمي نفسها بكل جبالها وبكل صخورها ، من الاعجاب المبتذل ، من الافتتان ، أو من ألعاب الأمل.

لقد همنا طوال النهار ، في هذه العظمة القاحلة واخذت الريح ، التي كنا لا نكاد نحس بها في بداية بعد الظهر ، تتعاظم مع مر الساعات وتملأ المشهد كله . كانت تهب من فجوة بين الجبال ، بعيداً نحو الشرق ، وتتدفق من اقصى الأفق ، وتأتي لتثب وثباً بين الصخور وتحت الشمس . كانت تصفر بقوة ، بلا توقف ، من خلال الخرائب ، وتحوم في دائرة من الصخور والتراب ، وتغرق اكوام الحجارة المنقوشة ، وتطوق كل عمود بنفيحها ، وتنبسط في صيحات متصلة على ساحة الملعب المنفتحة تحت السماء . كنت اشعر ان الريح تصفقني كصارية سفينة . كان جلدي ، بأحشائي المجوفة وبعيني المحترقتين وشفتي المشققتين ، يجف جفافاً شعرت معه انه لم يعد جلدي . بهذا الجلد كنت ، في الماضي ، افك ألغاز كتابة العالم . كان العالم يرسم عليه شارات حنانه أو غضبه ، ويدفئه بلهاث صيفه ، أو يعضه بأسنان حقيقية . لكن الآن وقد لفحتني الريح طويلاً ، وهزتني طوال ساعة ونيف من الزمن ، ودوختني مقاومتها فإنني بت لا اعي الرسم الذي يخطه جسمي . كنت مصقولاً بالريح ، مهترئاً حتى الروح كالحصاة التي صقلها المد والجزر . كنت بعضاً من تلك القوة التي أعوم بقدرتها ، ثم القسم الاكبر منها ، ثم كلها أخيراً ، غير مميز وجيب دمي من ضربات قلب الطبيعة الكبيرة الرنانة ، ذاك القلب الماثل في كل مكان. كانت الريح تنحتني على صورة العري المتأجج الذي يحيط بي . وكان عناقها الجريح يهبني ، أنا الصخرة بين الصخور ، عزلة عمود أو شجرة زيتون تحت سماء الصيف .

كان هذا الحمام العنيف من الشمس والريح يستنفد قواي الحيوية كلها .

يكاد لا يبقى فيّ شيء إلا خفقان أجنحـة يرف ، حياة تشكو ، تمرد فكر واهن . عما قريب ، اتوزع بين أركان العالم الأربعة، ناسياً ، منسياً من نفسي، فأصبح هذه الريح وفي الريح ، هذه الأعمدة وهذا القوس ، هذه البلاطات اللاظية وهذه الجبال الشاحبة حول المدينة القاحلة . ولم اشعر قط، فيما مضى، بانفصالي عن ذاتي وبحضوري في العالم في آن واحد ، كما أشعر الآن .

أجل ، انني حاضر . وما يذهلني في هذه الهنيهة انني لا استطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك . مثل رجل محكوم بالسجن المؤبـد – وكل شيء حاضر أمامه. لكن أيضاً مثل رجل يعرف ان الغد سيكون مشابهاً وكذلك سائر الأيام . ذلك ان وعي الانسان حاضره ، معناه ألا يعود ينتظر شيئاً . وإذا كانت هناك مشاهد هي عبارة عن حالات نفسية ، فهي اكثر المشاهـد ابتذالاً . كنت اسعى على طول هذا البلد وراء شيء ما ليس لي ، بل منه ، كطعم الموت المشترك بيننا فكانت الهواجس ، بين الأعمدة ذات الظلال المائلة الآن ، تذوب في الهواء كطيور جريحة : ويحل مكانها هذا الصحو الجدب . ان القلق يلد من قلب الأحيـــاء . لكن الهدوء سيحجب هذا القلب الحي : هوذا صحوي كله وكلما تقدم النهـــار ، واختنقت الأصوات والأنوار تحت الرماد الذي يسقط من السماء ، أشعر بنفسي ، وقد خلوت لذاتي ، انني بـلا دفاع ضد القوى الوئيدة التي تقول لا في داخلي .

قليل من الناس يفهم ان هناك رفضاً لا علاقة له بالتخلي . ماذا تعني هنـا ألفاظ المستقبل ، وتحسن المعيشة ، والمركز ؟ مـاذا يعني تقدم القلب ؟ إذا كنت أرفض بعناد كل ما في العالم من « فيما بعد » ، فهذا لأنني أود ألا اتخلى عن غناي الحاضر . لا يعجبني أن أؤمن بأن الموت يفضي إلى حياة أخرى ، انه بالنسبة لي باب مغلق لا اقول انه خطوة يجب أن نخطوها:بل انه مغامرة

فظيعة وقذرة ، كل ما يُقترح على من يسعى إلى أن يخفف عن الانسان وطأة حياته ، وأمام الطيران الثقيل للطيور الكبيرة في سماء جميلة ، انما أطالب على وجه التحديد بثقل معين للحيـاة واحصل عليه ، ان اكون بكل خلاياي في هذا الهوى السلبي ولن يعود لغير ذلك من علاقة بي ، أن فيّ من الشباب مـا لا يمكنني معه ان اتكلم عن الموت لكن يخيل إلي أنه إذا كان علي أن أفعل ذلك ، فإنما هنا سأجد الكلمة المضبوطة التي تعبر ، بين الهول والصمت ، عن اليقين الواعي لموت بلا أمل .

ان الانسان ليعيش مع بضع أفكار أليفـة . فكرتان أو ثلاث . وحسب العوالم والبشر الذين يلتقي بهم ، يصقلهـا ويبدلها . لا بد من عشر سنين كي تكون للانسان فكرة خاصة به فعلاً - يستطيع ان يتكلم عنها . بالطبع ، في هذا شيء من التثبيط . لكن الانسان يربح منه تآلفـاً معيناً مع وجه العالم الجميل . فقد كان ، حتى الآن ، يراه وجهاً لوجه . ولا بد له من ان يخطو خطوة جانبيه لينظر الى وجهه الجانبي . ان انساناً شاباً ينظر الى العالم وجهاً لوجه . فالوقت لم يتسن له ليصقـل فكرة الموت أو العدم الذي قد عرك هوله مع ذلك . لا بد ان هذا هو الشباب ، هذا الاختلاء القاسي مع الموت ، هذا الخوف الجسماني للحيوان الذي يحب الشمس . وبخلاف ما يقال، بهذا الصدد على الأقل ، فان الشباب لا يتعلل بالاوهـام ، فهو لم يتح له لا الوقت ولا الورع ليبني قصور الاوهام ولست ادري لماذا ، امام هذا المشهد المتخدر ، امام هذه الصرخة الحجرية المأتمية والاحتفالية ، جميلة ، اللاإنسانية في سقوط الشمس امام موت الأمل والالوان هـذا ، لست أدري لماذا كنت واثقاً ان على الرجال الجديرين بهذا الاسم ، عند بلوغهم خاتمة الحياة ، ان يعودا الى تلك الخلوة ، ان ينكروا الافكار القليلة التي كانت افكارهم ،

ويستعيدوا البراءة والحقيقة التي تسطع في نظرة البشر القدامى تجاه مصيرهم. انهم يعودون الى شبابهم مجدداً ، لكن بعناقهم الموت . ولا أحقر من المرض في هذا الصدد . انه دواء ضد الموت . انه يمهد له . انه يخلق مراناً مرحلته الاولى ، الاشفاق على الذات . انه يدعم الانسان في جهده الكبير ، أعني جهده في التهرب من يقينه بأنه سيموت بأسره . لكن جميلة ... وأشعر عندئذ ان التقدم الحقيقي الوحيد ، للحضارة ، التقدم الذي يتعلق به أحد البشر من زمن لآخر ، هو ان نبدع ميتات واعية .

ان ما يدهشني دوماً هو فقر أفكارنا عن الموت ، مع اننا نشيطون جداً في قتل سائر المواضيع بحثاً . انه خير أو انه شر . انني أخاف منه أو أناديه (كما يقولون) لكن هذا يثبت ايضاً ان كل ما هو بسيط يتجاوزنا . ما الأزرق وما نفكر عن الازرق ؟ انها الصعوبة نفسها بالنسبة للموت . نحن لا نعرف أن نتناقش عن الموت وعن الالوان . ومع ذلك ، فإن المهم هو هذا الرجل الماثل امامي ، الثقيل كالارض الذي يرمز الى مستقبلي مقدماً . لكن أأستطيع أن أفكر به حقاً ؟ أقول في نفسي ، سأموت ، لكن هذا لا يعني شيئاً ، لأنني لا أتوصل الى الاعتقاد به ولا يمكن أن تكون لي الا تجربة موت الآخرين . لقد رأيت اناساً يموتون . رأيت ، على الأخص ، كلاباً تموت . وكان لمسها هو الذي يبلبلني أفكر عندئذ : الأزهار، الابتسامات . الشهوات الى المرأة ، وأفهم ان كل رعبي من الموت يكمن في غيرتي على الحياة . انني غيور ممن سيعيشون ، وممن سيكون للازهار والشهوات الى المرأة معنى من لحم ودم بالنسبة لهم . انني حسود ، لأنني أحب الحياة حباً جماً لا أستطيع معه إلا أن أكون أنانياً . ما شأني والأبدية . أستطيع ان أكون هنا ، راقداً ذات يوم ، واسمع نفسي أقول : « أنت قوي واني

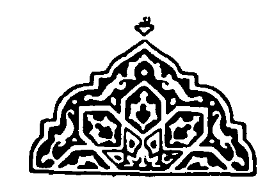
مدين لك بصدقي : أستطيع أن أقول لك انك ستموت » . ان أكون هنا ، وكل حياتي بين يدي ، وكل خوفي بين أحشائي ، وفي عيني نظرة بلهاء . أما غير ذلك . فماذا يعني : أمواج من الدم تأتي لتضرب صدغي ويخيل الي انني سأسحق كل شيء حولي .

لكن البشر يموتون رغم أنفهم ، رغماً عن ديكوراتهم . يقال لهم : « حين ستشفى ... » ، ويموتون . لا أريد هذا . ذلك انه إذا كانت هنـــاك أيام تكذب فيها الطبيعة ، فهناك أيام تصدق فيها القول . جميلة تصدق القول هذا المساء ، وبأي جمال حزين وملح ! أما عني أنا فلا أريد ، أمام هذا العالم لا ان أكذب ولا ان يكذب علي . أريد ان أحمل صحوي حتى الثمالة وان أنظر الى نهايتي بكل اسراف غيرتي وسعادتي . وبمقدار ما انفصل عن العالم أخاف من الموت ، بمقدار ما ارتبط بمصير البشر الذين يعيشون ، بدلاً من ان اتأمل السماء التي تدوم أبداً . اننا بابداعنا ميتات واعية ، نقرب المسافة التي تفصلنا عن العالم ، وندخل بلا فرح في الانجاز الواعي لصور نشوى عن عالم اضعناه الى الأبد . والنشيد الحزين لتلال جميـــلة يعمق في روحي مرارة هذه الحقيقة .

* * *

نرتقي ، اذ يقبل المساء ، المنحدرات التي تفضي الى القرية ، ونستمع ، إذ نعود ادراجنا ، الى شروح : « هنا كانت المدينة الوثنية . وهذا الحي الذي يمتد خارج الأراضي هو حي المسيحيين فيما بعد ... » أجل ، هـــذا صحيح . لقد تعاقب هنا بشر ومجتمعات . وطبع فاتحو هذا البلد بحضارتهم، حضارة ضباط الصف . كانت لهم فكرة دنيئـــة وسخيفة عن العظمة ،

وكانوا يقيسون عظمة امبراطوريتهم بالمساحة التي تحتلها . أما المعجزة فهي ان خرائب حضارتهم هي نفي لمثلهم الأعلى بالذات . ذلك ان هذه المدينـــة التي لم يبق منها الا هيكلها العظمي لا ترسم على أديم السماء ، اذا ما نظر اليها من شاهق في المساء المتلاشي ومن خلال طيران اليمام الأبيض حول قوس النصر ، شارات الفتح والطموح . ان العالم يقهر دوماً في النهاية التاريخ . وهذه الصيحة الحجرية العظيمة التي تطلقها جميلة بين الجبال ، والسماء والصمت انني أعرف ما فيها من شعر ، صحو ، لا مبـــالاة ، الامارات الحقيقية لليأس أو للجمال . إن القلب لينقبض أمام هذه العظمة التي أخذنا نغادرها . جميلة تبقى خلفنـا بماء سمائها الحزين ، ونشيد طير آتٍ من الجانب الآخر للهضبة ، وانسياب مفاجىء سريع لماعز على سفوح التلال ، والوجه الحي لإله أقرن يتسنم أحد الهياكل ، في الغسق المتراخي الرنان .



الصيف في الجزائر

ان الحب الذي تتبادله مع مدينة هو على الأغلب حب سري . ان مدناً كباريس ، براغ ، وحتى فلورنسا ، لهي مدن منغلقة على نفسها وتحدد بالتالي العالم الخاص بها . لكن الجزائر ، مع بعض الاوساط الممتازة كالمـــدن على البحر ، تنفتح في السماء مثل فم او جرح. وما قد تحبه في الجزائر هو ما يعيش منه جميع الناس : البحر عند منعطف كل شارع ، ثقل معين للشمس ، جمال العرق . وكما هو الحال دوماً ، فان في هـــذا العهد وفي هذه التقدمة لعطراً اكثر سرية . ففي باريس ، قد يأخذك الحنين الى الفضاء واصطفاق الاجنحة. اما هنا، على الأقل ، فالانسان مفعم ، واثق من رغباته فيستطيع عندئذ ان يقدر ثرواته .

لا بد للمرء بدون شك أن يعيش حقبة طويلة من الزمن مدينـــة الجزائر ليفهم أي جفاف يمكن ان يحدثه الافراط في الثروات الطبيعية. فلا شيء هنا

لمن يريد ان يتعلم ، او يتثقف ، او يرتقي . ان هذا البلد بدون دروس . انه لا يعد بشيء ولا يحمل على الاوهام . انه يكتفي بأن يعطي ، لكن ما اعظم اريحيته في العطاء . انه يهب نفسه بأسره الى العين وانك لتعرفه ما ان تتمتع به . ان ملذاته لا دواء لها ، وافراحه تظل بلا أمل . وما يتطلبه هو نفوس نيرة ، اي لا تقبل عزاء . انه يطلب ان يقوم الانسان بفعل صاح مثلما يقوم بفعل ايمان . يا للبلد الفريد الذي يهب الانسان الذي يغذيه عظمته وبؤسه في آن واحد! وليس من المدهش ان يكون الغنى الشهواني الذي يتمتع به انسان حساس من هذا البلد متوافقاً مع منتهى التجرد . ليس ثمة من حقيقة لا تحمل معها مرارتها . فأي عجب اذن اذا كنت لا أحب وجه هذا البلد إلا وسط ابنائه الاكثر فاقة !

ان البشر يجدون هنا طوال شبابهم حياة على قدر جمالهم . وبعد ذلك يكون الافول والنسيان . لقد راهنوا على الجسد ، لكنهم كانوا يعرفون انهم خاسرون ، ان كل شيء في الجزائر ، بالنسبة لمن هو شاب وحي ، وملجأ وذريعة للانتصارات : الخليج الشمس ، لعب ألوان الأسطحة الحمراء والبيضاء من ناحية البحر ، الأزهار والملاعب ، الصبايا بسيقانهن البضة . اما من فقد شبابه ، فلا يجد شيئاً يتشبث به او مكاناً تستطيع الكآبة فيه ان تهرب من نفسها في غير هذا المكان ، هناك اسطحة ايطاليا ، أديرة اوروبا ، أو وشي التلال البروفانسية ، وغيرها من الامكنة التي يستطيع فيها الانسان أن يهرب من انسانيته ويستسلم بعذوبة الى ذاته. لكن كل شيء هنا يتطلب العزلة ودم شباب الرجال . كان غوته ، وهو يحتضر ، ينادي النور ، وهذه كلمة تاريخية . اما في بلكور وباب الاود ، فان الشيوخ الجالسين في صدر المقاهي يستمعون الى تبجحات الفتيان بشعورهم الملصوقة .

هذه البدايات وهذه النهايات ، انه الصيف الذي يقدمها لنا في الجزائر أن المدينة تقفر ، خلال هذه الاشهر . لكن الفقراء يلبثون فيها والسماء ومع الاوائل ، ننزل معاً نحو المرفأ وكنوز الانسان : سخونة الماء واجساد النساء السمر . وعند المساء يعودون ، وقد اكتظوا من هذه الثروات ، الى القماشة المشمعة ومصباح الزيت وهما كل ما لديهم من ديكور في حياتهم .

* * *

في الجزائر ، لا يقال « لنأخذ حماماً » ، بل « لنضرب حماماً » لا داعي للالحاح . انهم يسبحون في المرفأ ويذهبون للاستراحـــة على عوامات . حين يمرون بقرب عوامة عليها صبية جميلة ، يصيحون برفاقهم : « اقول لك انهـا نورس » . ان هذه الافراح صحيحة . ولا بد من الايمان بأنها تشكل المثل الاعلى لهؤلاء الفتيان ما دام معظمهم يتابع هذه الحياة اثناء الشتاء ، ويتعرى، ظهر كل يوم ، تحت الشمس لتناول غذاء طفيف . وليس ذلك لأنهم قرؤوا المواعظ المملة لأنصار الطبيعة ، اولئك المبالغين في اهمية الجسد (هناك فلسفة للجسد لا تقل اثارة للغيظ عن فلسفة الروح) . بل لأنهم « على ما يرام تحت الشمس». ولعلنا لن نستطيع ابداً ان نعلي من اهمية هذه العادة بالنسبة لعصرنا بما فيه الكفاية . فلأول مرة منذ ألفي عام ، وضع الجسد عارياً على شطآن . ومنذ عشرين قرناً والبشر يحاولون أن يضفوا طابع الحشمة على السفاهة والسذاجة اليونانيتين ، وينقصوا من شأن الجسد ، ويعقدوا الملبس . أما اليوم ، ورغم هذا التاريخ ، فان سباق الفتيان على شطآن البحر المتوسط ان هو الا استمرار للحركات العظيمة لرياضيي ديلوس . وأنت ان عشت هكذا قرب الأجساد وبالجسد ، فإنك ستتبين ان له درجاته ، وحياته ، وقد اجازف بالقول ان له

لا معنى ، وبسيكولوجية خاصة به [1] . ان لتطور الجسم كتطور الروح تاريخه ، وانتكاساته ، وتقدمه ، وعجزه . وهـــذا الفرق الطفيف فقط : اللون . حين تذهب الى مسابح المرفأ أثناء الصيف ، تدرك ان جميع الاجسام تنتقل انتقالاً متوافقاً من الأبيض الى الذهبي ، ثم الى الأسمر ، وفي النهاية الى لون تبغي هو منتهى الجهد الذي يستطيع الجسم ان يبذله في تحوله . ويهيمن حي القصبة على المرفأ بانعكاس مكعباته البيضاء فتبدو الأجسام وكأنها تبسط نسيجاً نحاسي اللون ، على صفحة الماء التي استحالت خلفية بيضاء ساطعـــة للمدنية العربية . وكلمـــا تقدم شهر آب ، واحتدت الشمس ، ازداد بياض المنازل بهراً للابصار واكتست البشرات بحرارة أشد دكنة . فكيف لا نتحد عندئذ بهذا الحوار بين الصخر والجسد اتحاد الشمس والفصول ؟ لقد انقضت فترة الصباح كلها في الغطس ، وفي أريج الضحكات بين فوارات الماء . وفي تجـــذيف طويل حول المراكب الحمر والسود (المراكب التي تأتي من النرويج والتي تفوح منها كل عطور الخشب ، والمراكب التي تقدم من المانيا مليئـــة برائحة الزيوت ، والمراكب التي تنتقل بين مدن الساحل وتعبق بالخمر والبراميل العتيقة) . وفي الساعة التي تطفح فيها الشمس من كل زوايا السماء ، يعود بنـــا الى الزورق البدائي البرتقالي ، محملاً بالاجسام السمر ، في سباق

---

(١) : هل اتساخف وأقول انني لا أحب الطريقة التي يعظم بها اندريه جيد الجسد ؟ انـــه يطلب اليه ان يردع شهوته ليجعلها أكثر حدة ، وهكذا يقترب ممن يطلق عليهم ، في اللهجة العامية للبيوت العمومية ، اسم المعقدين أو المحمومين والمسيحية أيضاً تريد أن تعطل الشهوة . لكنها ترى في ذلك ، وهذا أكثر طبيعية ، اماتة . أما رفيقي فانسان الذي يمتهن صنع البراميل والذي فاز ببطولة السباحة ، فان له عن الأشياء نظرة أصفى أيضاً . انه يشرب حين يعطش ، واذا اشتهى امرأة سعى الى النوم معهـــا ، وسيتزوجها اذا أحبها (لم يحدث هذا بعد) . وبعد ذلك ، يقول دوماً « الحال تتحسن » — وهذه العبارة تلخص بدقة كل ما يمكن ان نمـــدح به الارتواء .

مجنون . وحين ينقطع فجأة الوجيب الايقاعي للمجداف المزدوج ذي الاجنحة التي بلون الثمار ، وتنساب ملياً على الماء الهادىء في حوض المرفأ ، كيف لا أكون واثقاً انني أقود عبر الميـــاه الملساء شحنة صهباء من آلهة أتعرف فيهم اخوتي ؟

لكن الصيف يبسط لنا ، في الطرف الآخر من المدينة ، ثرواته الأخرى المضادة : أعني لحظات صمته وسأمه . ان لحظات الصمت هذه ليست كلهـــا ذات نوعية واحدة ، فمنها ما يولد من الظل ومنها ما يولد من الشمس . فهناك صمت الظهيرة في ساحة الحكومة . وفي ظل الأشجار التي تحفها ، يبيع عرب كؤوساً من شراب الليمون المثلج ، المعطر بزهر البرتقـال ، بخمسة فلوس . ويخترق الساحة المقفرة نداؤهم : « بارد ، بارد » وبعد صياحهم يخيم الصمت من جديـــد تحت الشمس : يتقلقل الثلج ، في قربة البائع ، وأسمع صوته الخافت . وهناك صمت القيلولة . ففي شوارع « البحرية » ، وأمام دكاكين الحلاقين الدرنة ، يمكن للانسان أن يشعر به من طنين الذباب الرخيم خلف ستائر الخيزران الأجوف . وفي غير هذا المكان ، في مقاهي القصبة المغربية ، يكون الجسم هو الصامت ، فلا يستطيع أن ينتزع نفسه من هذه الأماكن ، ولا أن يهجر قدح الشاي ويعود الى الزمن مع ضجيج دمه . لكن هناك على الأخص صمت أماسي الصيف .

هذه اللحظات الوجيزة التي يغور فيها النهار في الليل ، هل يجب أن تكون عامرة بالاشارات والنداءات السريـــة كي تكون الجزائر مرتبطة في نفسي الى هذا الحد بها ؟ حين اكون لبعض الوقت بعيداً عن هـــذا البلد ، اتخيل أغساقه وكأنهـــا وعود بالسعادة . ثمة دروب بين أشجار المصطكى

والزيتون ، على التلال المشرفة على المدينة. وانما اليها يتجه قلبي آنذاك . انني أرى منها عصائب من الطيور السوداء تحلق في الأفق الاخضر. وينبسط شيء ما في السماء ، التي انقشعت عنها شمسها فجأة . يتمطى شعب صغير كامل من السحب الحمراء ويتلاشى في الفضاء . سرعان مـــا تلمع النجمة الأولى وهي تتشكل وتتصلب في كثافة السماء ، ثم على حين غره ، يقبل الليل مفترساً . يا لأمسيات الجزائر الهاربـــة ، أي روعة فيها اذن لتطلق في نفسي أشياء كثيرة من عقالها ؛ وهذه العذوبة التي تتركها على شفتي : انها تتلاشى في الليل قبل ان يتسنى لي الوقت لأمل منها . أهذا هو سر بقائها ؟ ان حنان هذا البلد مبلبل وخفي . لكن القلب تستسلم له بكل خلاياه ، حين يظهر نفسه . المرقص ، على شاطىء بادوفاني ، مفتوح كل الأيام . وفي هذه العلبة المستطيلة الكبيرة المفتوحة على البحر بكل طولهـا ، يرقص شبان الحي الفقراء حتى المساء . غالباً ما كنت انتظر هنا دقيقة فريدة . أثناء النهار ، تتولى حمايـة القاعة مصاريع من الخشب مسطحة ، ترفع حين تختفي الشمس . آنذاك تمتلىء القاعة بنور أخضر غريب ، يولده تلاحم السماء والبحر . واذا كنت جالساً بعيداً عن النوافذ ، فانك لا ترى الا السماء ، وأوجه الراقصين التي تمـــر بالتناوب ، كأشباح صينية . أحيانـــاً ، يعزف الفالس ، فتدور الأوجه السوداء ، على الخلفيـــة الخضراء ، كتلك الرسوم المقصوصة التي تلتصق على قرص الحاكي . ثم يأتي الليل بسرعة ، ومعه الأضواء . لكني لن استطيع ان اعبر عمـا أجد من وحي وغموض في هذه اللحظة الخاطفة . انني لأذكر على الاقل فتاة طويلة بديعة رقصت طوال العصر . كانت تضع طوقاً من الياسمين فوق ثوبها الأزرق الملتصق بجسمها ، والندي بالعرق من صلبها الى ساقيها . كانت تضحك وهي ترقص وترمي برأسها الى الوراء . وحين كانت تمر قرب

الطاولات، كانت تترك خلفها رائحة مزيجاً من الازهار والجسد . وحين اقبل المساء ، بت لا أرى جسمهـا الملتصق بمراقصها ، لكن كانت تدور على أديم السماء بقع متعاقبة من الياسمين الابيض والشعر الاسود ، وحين كانت تدفـع الى الخلف بصدرها الممتلىء ، كنت أسمع ضحكهـا وأرى الوجه الجانبي لمراقصها ينحني فجأة . انني لمدين لهذه الاماسي ، بالفكرة التي اكونها عن البراءة . واما هذان المخلوقان المشحونان بالعنف ، فقد تعلمت ألا افرق بينهما وبين السماء التي تحوم فيها شهواتها .

* * *

في دور سينما الاحياء ، في مدينة الجزائر ، تبـاع احياناً اقراص من النعنع ، محفور عليها بالاحمر كل ما هو ضروري لولادة الحب : ١ - اسئلة : « متى ستتزوجينني » ، « هل تحبينني ؟ » ، واجوبة : « الى حد الجنون» ، «في الربيع» وبعد ان يمهد الفتى الميدان ، يدفع بها الى جارته التي تجيب بالمثل او تكتفي بتجاهله . ولقد عقد اكثر من قران واحد ، في بلكور على هـذا النحو، واتحدت اكثر من حياة مع غيرها بتبادل سكاكر النعنع . وهذا يصور احسن تصوير الشعب الطفل لهذا البلد .

ربما كان عنوان الشباب ميلاً عظيماً الى السعادات السهلة . لكن الشباب انما هو على الأخص استعجال للحياة يقارب الاسراف وفي بلكور ، كما في باب الأود ، يتزوج الشبان باكراً . انهم يشتغلون قبل الآوان بكثير ويستوعبون في عشر سنين تجربة حياة انسانية كاملة. ان عاملاً في الثلاثين من العمر يكون قد قامر بكل اوراقه . انه ينتظر النهاية بين زوجته واطفاله . لقد كانت

حظوظه مفاجئة لا ترحم . وكذلك كانت حياته . وهكذا نفهم انه ولد في هذا البلد الذي يعطى فيه كل شيء ليسترجع من جديد وفي هذه الوفرة وهذا السخاء ، تأخذ الحياة متمنى الاهواء العظيمة، المفاجئة ، العاصفة ، الكريمة. انها ليست معدة للبناء ، بل للاحتراق . اذن لا مجـــال للتفكير ولتحقيق التقدم . ان مفهوم الجحيم . على سبيل المثال ، ليس الا مزحة محببة هنا .ان امثال هذه التخيلات لا يسمح بها الا للمتزمتين في الفضيلة . واعتقد عن حق ان الفضيلة كلمة لا معنى لهـــا في الجزائر قاطبه . ليس لأن هؤلاء البشر يفتقرون الى مبادىء ، فان لهم اخلاقهم الخاصة بهم. ان الفرد منهم لا يقصر في حق أمـــه . ويوفر الاحترام لزوجته في الشوارع . ويحيط المرأة الحامل بعين الرعاية . ولا يهاجم خصماً له مستعيناً برفيقه ، لأن « في هـذا خبثاً » ومن لا يحفظ هذه الوصايا الاساسية، «لايكون رجلا»،وهكذا تسوىالقضية. هذا يبدو لي عدلا وحقاً ، وكثيرون منا لا يزالون يراعون عن غير وعـــي قانون الشارع هذا ، وهو القانون المنزه الوحيد الذي اعرف . لكن اخلاق الحانوتي مجهولة هنا في الوقت نفسه. لقد رأيت حولي دائماً وجوهاً تشفق عند مرور رجل يحدق به شرطة وقبل ان يعرفوا أسرق الرجل ، أم قتل أمه ، ام أنه مجرد شخص غير امتثالي ، يقولون « المسكين » ، أو يقولون بشيء من الاعجاب : « ان هذا لقرصان » .

ثمة شعوب ولدت للكبرياء والحياة.انهاالشعوبالتيتتمهد بالرعاية اغرب ميل الى السأم . كما ان شعور الموت عندها هو أكره المشاعر . واذا ما استثنينا فرح الحواس ، فان تسليات هذا الشعب بليدة . إن جمعيات الشغيلة ومآدب « الأصدقاء » وسيما الثلاثة فرنكات والأعياد البلدية تكفي منذ سنين للترفيه عمن تجاوز الثلاثين من العمر . إن ايام الآحـــاد في الجزائر هي من اكأب

الايام . فكيف يمكن لهذا الشعب الضيق التفكير ان يلبس بالأساطير هول حياته العميـــق ؟ ان كل ما يمت بصلة الى الموت هنا سخيف أو مكروه . ان هذا الشعب الذي يعيش بدون دين وبدون أصنام يعيش وحيداً بعد ان عاش جماعة . انني لا أعرف مكاناً أبشع من مقبرة شارع « برو » تجاه مشهد من أجمل مشاهد العالم . ان اكداساً من الذوق الفاسد بين أطر سوداء تكشف عن كآبة رهيبة في هذه الأمكنة التي يكشف فيها الموت عن وجهه الحقيقي. وتقول النـــذور التي على شكل قلب « كل شيء ينقصني الا الذكرى » . وجميعها تلح على ذلك الخلود المضحك الذي يقدمه لنا بثمنٍ بخس قلب من أحبونا . انها الجمل نفسها التي يوصف بها اليأس بكل أنواعه . انها تخاطب الميت بلسان ضمير المخاطب : « ذكرانا لن تتخلى عنك » ، وأي مداهنـــة مفجعة هذه المداهنة التي تنسب جسماً ورغبات الى ما هو على أفضل الحالات سائل أسود . وفي مكان آخر ، وسط وفرة مذهـــلة من الزهور والطيور الرخامية ؛ يتمالى هذا النذر الجسور : « لن يبقى قبرك أبداً بدون زهور » . ولكن سرعان ما يسكن الروع : اذ لا يعني هذا الكلام الا باقة من الملاط الذهبي. اقتصادية جداً بالنسبة لوقت الأحياء (كتلك الزهور المسماة بالخالدات والمدينة باسمها الفخم لعرفان جميل من لا يزال يستقل الحافلة الكهربائية أثناء سيرها) . ولما كان لا بد من مسايرة العصر ، فانهم يستعيضون أحياناً عن طائر الدخلة الكلاسيكي بطائرة مدوخة من اللآلىء يقودها ملاك ساذج مزود، خلافاً لكل منطق ، بجناحين عظيمين .

لكن كيف أوضح ان صور الموت هذه لا تنفصل أبداً عن الحياة ؟ ان القيم هنا وثيقة الارتباط . والنكتة المحبذة عند القبارين الجزائريين ، حـــين تكون عرباتهم فارغة ، ان يصيحوا بالصبايا الجميلات اللائي يصادفونهن :

« أتصعدين ، يا حبيبتي ؟ » . ولا شيء يمنع من أن نرى في هذا رمزاً ، حتى ولو كان غليظاً . وقد يبدو أيضاً ان هناك شيئاً من التجديف في جواب المرء عند إنبائه نعياً قائلاً وهو يغمز بعينه : « مسكين ، لن يغني بعد الآن » ، أو كتلك الوهرانية التي لم تحب زوجها قط : « الله اعطاني اياه ، والله استرجعه مني » لكني لا أستطيع ، بعد كل حساب ، أن أدرك أي قدسية يمكن أن تكون للموت ، وانني لأشعر شعوراً قوياً ، على العكس ، بالمسافة القائمة بين الخوف والاحترام . إن كل شيء هنا يتنفس القرف من الموت في بلد يدعو الى الحيـاة . ومع ذلك فتحت أشجار هذه المقبرة بالذات يضرب فتيان بلكور المواعيد وتستسلم الفتيات للقبل والمداعبات .

انني افهم جيداً ألا يتقبل الجميع هـذا الشعب . فليس للذكاء مقام كما في إيطاليا . ان هـذا العرق لا يبالي بالروح . ان عبادته ، اعجابه ينصب على الجسد ، انـه يستمد منه قوته ، ومجونه الساذج وغروراً صبيانياً تناله منه أحكام قاسية . فغالباً ما يوجه اللوم الى «عقليته» ، أيَ الى اسلوبه في الرؤية والحياة . وصحيح أن بعض الألحاف في الحياة يترافق دوماً وبعض الظلم . لكن هذا شعب بدون ماضٍ ، بدون تقاليد ، غير انه لا يخلو من شعر - بيد انه عرف حق المعرفة نوعيته ، صلب ، جسدي ، بعيد عن الحنان ، كشعر سمائهم ، الشعر الوحيد الذي انفعل به وانفتح له في الحقيقه . ان نقيض الشعب المتمدين هو الشعب الخلاق .

ان لي أملا مجنوناً في أن يكون هؤلاء البرابرة الذين يسترخون على الشطآن هم في سبيلهم ، ربمـا عن غير علم منهم ، الى نحت وجه لثقافة تجد فيها عظمة الانسان اخيراً وجهها الحقيقي . ان هذا الشعب الخائض بأسره في

الحاضر يعيش بدون أساطير ، بدون عزاء . لقد وضع كل ثرواته على هــذه الأرض وبقي مــــذ ذاك دون دفاع ضد الموت ، ان هبات الجمال الجسمي موفورة لديه . ومعها ذلك الشره الغريب الذي يرافق دوماً هذا الغنى الذي لا مستقبل له . ان كل مــا يفعله الانسان هنا يدل على النفور من الاستقرار واللامبالاة تجاه المستقبل . انهم يستعجلون الحياة واذا كان سيولد من هذا فن ، فانه سيخضع لكراهية الديمومة التي دفعت الدوريــين الى نحت عمودهم الأول من الخشب . ومع ذلك ، أجل يمكننا أن نجد اعتدالاً في نفس الوقت الذي نجد فيه تجاوزاً في الوجه العنيف الضاري لهذا الشعب ، في سماء الصيف هــــذه الفارغة من الحنان ، التي تصلح كل الحقائق لتقال عنها والتي لم ترسم عليها أي ألوهية خادعة علائم الأمل أو الفداء. فبين هذه السماء وهذه الأوجه الملتفتة اليها ، لا مكان لميتولوجيا ، أو لأدب ، أو لأخلاق ، أو لدين ، انما فقط حجارة ، وجسد ، ونجوم ، وهذه الحقائق التي يمكن لليد ان تلمسها .

* * *

ان يحس المرء بارتباطاته بأرض ما ، وبحبه لبعض البشر ، ان يعرف ان هناك دوماً مكاناً يجد فيه القلب تجاوبه ، فهذا يقين وأكثر من يقين بالنسبة لحياة انسانية واحدة . وهذا بلا ريب لا يمكن ان يكفي . لكن كل شيء في موطن الروح هذا يصبو الى بعض الدقائق . « أجل ، الى هناك يجب ان نلتفت » . أي غرابة في ان نجد هذا اللقاء ، الذي كان يتمناه افلوطين ، على الأرض ؟ ان الاتحاد يتترجم هنا بألفاظ الشمس والبحر . والقلب حساس به بما في الجسد من نكهة معينه تمنحه مرارته وعظمته . انني أدرك ان ليست هناك سعادة فائقة الانسانية ، ولا أبدية خارج منحنى الأيام . ان

هذه الثروات الزهيدة والأساسية ، هذه الحقائق النسبية هي الوحيدة التي أنفعل لها . أما الحقائق الأخرى ، « المثالية » فليس لدي ما فيه الكفاية من الروح لأفهمها . وليس معنى ذلك انه يجب ان نمارس الحيوانية ، لكني لا أجد معنى لسعادة الملائكة . انني أعرف فقط ان هـــذه السماء ستدوم أكثر مني . وما الأبدية ان لم تكن ما سيستمر بعد موتي ؟ انني لا أعبر هنا عن اعجاب بالمخلوق من حيث أصله . انما أعني شيئاً آخر . ليس من السهل دوماً ان تكون انساناً ، وأصعب من ذلك ان تكون انساناً نقياً . لكن ان تكون نقياً ، فهذا معناه ان تبلغ موطن الروح الذي تصبح فيه قرابة العالم محسوسة ، وتلتقي فيه ضربات الدم مع نبض الشمس العنيف في الساعة الثانية ظهراً . ومن المعروف ان المرء يتعرف الوطن في لحظـــة ضياعه . ومسقط الرأس بالنسبة لمن تعذبهم نفوسهم أشد العذاب هو الموطن الذي يجحدهم . انني لا أريد أن أكون فظاً ولا أن يبدو علي انني ابالغ . لكن ما يجحدني أخيراً في هذه الحياة هو أولاً ما يقتلني . ان كل ما يعظم الحياة ، يزيد في الوقت نفسه في عبثها . انني أتعلم ، في صيف الجزائر ، ان ثمة شيئاً واحداً أفجع من الألم ، أعني حياة انسان سعيد . لكن هذا يمكن أن يكون أيضاً طريقاً أكبر ، لأنه يؤدي الى الحيلولة دون كل غش .

كثيرون بالفعل يتظاهرون بحب الحياة ليتملصوا من الحب نفسه ، انهم يحاولون ان يتمتعوا وان « يقوموا بتجارب » . لكن هذه نظرة روحية . لا بد من اهلية نادرة ليكون الإنسان ممتاعاً . ان حياة الانسان تتحقق دون عون من روحه ، بتراجعها وتقدمها بعزلتها وحضورها في آن واحد . واني لأظن ، اذ ارى رجال بلكور هؤلاء يعملون ، ويدافعون عن زوجـاتهم واطفالهم ، دون اي تذمر في اغلب الاحيان ، ان الانسان قد يشعر بخجل

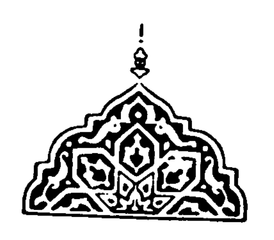
مفي ، انني بلا ريب لا اتعلل بالاوهام . فليس ثمـة حب كثير في الحيوات التي اتكلم عنها . وربما كان علي ان اقول انه لم يبق فيها حب كثير . لكنها تتملص من شيء ، على الاقل . ثمة كلمات لم افهمها قط حق الفهم ، ككلمة لخطيئة . بيد انني اعتقد انني اعرف ان هؤلاء الرجال لم يقترفوا خطيئة ضد الحياة . ذلك انه إن كانت هناك خطيئة ضد الحياة ، فهي ليست اليأس منها بقدر ما هي الأمل في حياة اخرى ، والتهرب من عظمة هذه الحياة الدنيا التي لا يشفى لها غليل . ان هؤلاء الرجال ما عرفوا الغش . لقد كانوا الهـة الصيف مذ كانوا في العشرين بحميتهم للحياة ، وهم ما زالوا كذلك ، رغم حرمانهم من كل أمل . لقد رأيت اثنين منهم يموتان . كانا يطفحان بالهلع ، لكن بصمت . وهذا افضل . لقد اطلق اليونان ، من علبة باندورا [١] التي تربى فيها شرور الانسانية ، الأمل بعد سائر الشرور ، وكان ارهبها . انني لا اعرف رمزاً يهيج النفس كهذا الرمز . ذلك ان الأمل ، خلافاً لما يظن ، يعادل الرضوخ . وان تعيش ، فهذا معناه الا ترضخ .

هذه هي على الاقل الامثولة اللاذعة لأصياف الجزائر. لكن ها ان الفصل يرتعد والصيف يترنح . ولقد بدأ تهطال امطار ايلول الاولى ، بعد الكثير من العنف والتخشب ، وان هذه الامطار لكالدموع الاولى للارض المتحررة، وكأن هذا البلد قد امتزج بالحنان خلال بضعة ايام . لكن اشجار الخرنوب اخذت في الوقت نفسه تفوح برائحة حب على كل الجزائر . وعنـــد المساء ،

---

(١) باندورا ، حواء العالم كما جاء في الاساطير اليونانية . وقد اهداها زويس علبة تحتوي على كل الشرور ، وارسلها الى الارض حيث تزوجها ابيمتيوس ، آدم اليونان ، وفتح العلبة مطلقاً كل الشرور ، ولم يبق في قعرها الا الامل . المترجم

بعد المطر ، تستريح الارض بأسرها ، وبطنها ندية بزرع له اريج اللوز المر ، بعد ان بذلت نفسها للشمس طوال الصيف . وها هي هذه الرائحة تبـارك من جديد اعراس الانسان والارض ، وتولد فينا الحب الوحيد الرجولي حقاً في هذا العالم : الحب الفاني المعطاء .



ملاحظـــة



تحت عنـوان « ملاحظة » كتب كامو صفحتين في نهايـة « الصيف في الجزائر » وصف فيـهما اللهجة العامية لسكان مدينة الجزائر . ولم يكن قصده من ذلك الا أن يـقدم للقارىء نـموذجا من لغة فرنسية خاصة هي اللغة التي أبدعها أهل الجزائر . لكن ترجمة هاتين الصفحتـين مستـحيلة مع الاسف . لهذا نكـتـفي بأن نـشير اليهـما مجرد اشارة .

« المترجم ».

الصحراء




يقيناً ، إن الحيـــاة هي الى حد ما نقيض التعبير . واذا ما صدقت كبار الاساتذة التوسكانيين ، فانهـــا الشهادة ثلاث مرات في الصمت ، والسعير ، والسكون .

لا بد من زمن طويل لندرك اننا نصادف شخصيات لوحاتهم كل يوم في شوارع فلورنسا أو بيزا . لكننا بتنـــا أيضاً لا نعرف كيف نميز الوجوه الحقيقية لمن يحيط بنا . لقد بتنا لا ننظر الى معاصرينا ، فلا نتكالب إلا على مـــا يرشد خطانا فيهم ، وينظم مسلكنا . اننا نفضل على الوجه ما فيه من شعر مبتذل. أما جيوتو وبييرو ديلا فرانشسكا ، فقد كانا يعرفان حق المعرفة أن حساسية انسان ما ليست شيئاً . وفي الحقيقة ، ان لجميع الناس قدراً من العاطفية . لكن العواطف الكبيرة البسيطة والخالدة التي يدور حولهـــا حب الحياة ، والبغضاء ، والحب ، والدموع ، والافراح ، تنمو في أعماق الانسان

وتنحت وجـــه مصيره - كما في لوحة دفن المسيح لجيوتينو ، وآلام مريم الصارفة بأسنانها . واني لأرى ، في كنائس توسكانيا الفسيحة، جمعاً غفيراً من ملائكة وجوههم منقولة عن بعضها البعض الى ما لا نهاية ، لكني اتعرف ، في كل وجه من هذه الوجوه الصامتة الوالهة ، عزلة .

قد تكون المسألة فعلا مسألة تصوير ، أو قصة ، أو فروق دقيقة ، أو اثارة انفعال . وقد تكون مسألة شعر . لكن انما المهم الحقيقة . واني لأسمي حقيقة كل مـــا يستمر . وثمة مبدأ ثاقب النظر يقول أن الرسامين وحدهم يستطيعون إرواء ظمئنا الى هذه الحقيقة ذلك أن لهم امتيازاً : فقد جعلوا من انفسهم روائيي الجسم . ذلك انهم يشتغلون بتلك المادة العظيمة والزهيدة التي تدعى الحاضر . والحاضر يرتسم دوماً في بادرة . انهم لا يرسمون ابتسامة أو حياء عابراً ، حسرة أو انتظاراً ، بل وجهاً بكل بروز عظامه وحرارة دمه . ولقد طردوا الى الأبد من هذه الوجوه الجامدة في خطوط أزلية لعنة الروح : على حساب الأمل . ذلك ان الجسم يجهل الأمل . انه لا يعرف الا نبضات دمه . ان الأبدية الخاصة به قائمة على اللامبالاة . كما في « جـــلد المسيح » لبيرو ديلا فرانشسكا حيث يكشف المسيح المعذب والجلاد الغليظ الجثة في وضعها ، داخل باحة مغسولة حديثاً ، عن التجرد ذاته . ذلك ان هذا العذاب ليس له تتمة . وامثولته تتوقف عند اطار اللوحة . فما الداعي لان ينفعل من لا ينتظر غداً ؟ ان عدم التأثر هذا وعظمة الانسان الذي بلا أمل ، ان هذا الحاضر الأبدي ، هو ما سماه اللاهوتيون المتبحرون بالجحيم . والجحيم ، كما لا يجهل ذلك أحد ، هو أيضاً الجسد الذي يتوجع . انما عنـــد هذا الجسد يتوقف التوسكانيون لا عند مصيره . ليست هناك رسوم تنبئية . وليست المتاحف مكاناً للبحث عن أسباب الأمل .

حقاً ان خلود الروح يشغل الكثير من العقول الطيبة . لكن ذلك لانهم يرفضون الحقيقة الوحيدة المعطاة لهم والتي هي الجسم ، قبل ان يستهلكوا نسغها . ذلك ان الجسم لا يطرح عليهم مشكلات ، أو انهم على الأقل يعرفون الحل الوحيد الذي يقترحه : انه حقيقة يجب ان تفنى ومن هنا كانت له مرارة ونبل لا يجرؤون على النظر اليها وجهاً لوجه . ان العقول الطيبة تفضل عليه الشعر ، لانه من مشاغل الروح . وقد يكون ملموساً انني اتلاعب بالالفاظ . لكن من المفهوم ايضاً انني اريد في الحقيقة ان اكرس شعراً اكثر سمواً: الشعلة السوداء التي رفعها الرسامون الايطاليون من تشيمابوي الى فرانشسكا بين مشاهد توسكانيا وكأنها احتجاج صاح للانسان الملقى به على ارض تحدثه عظمتها وضياؤها بلا انقطاع عن اله لا وجود له .

ولفرط اللامبالاة واللاحساسية قد يتوصل وجه ما الى بلوغ العظمة الجمادية لمشهد ما . وكما يتوصل بعض فلاحي اسبانيا الى أن يشبهوا اشجار زيتون اراضيهم ، كذلك تتمكن وجوه جيوتو ، وقد تعرت من الظلال الباهتة التي تتجلى فيها الروح، من الاندماج بتوسكانيا نفسها من خلال الامثولة الوحيدة التي تفيض بها : ممارسة الهوى على حساب الانفعال ، مزيج من الصبوات والمتع ، تجاوب مشترك بين الارض والانسان ، يتحدد الانسان به ، كالارض ، في منتصف الطريق بين البؤس والحب ليس ثمة من حقائق كثيرة يركن اليها الانسان . ولقد عرفت بداهة هذه الحقيقة ، مساء يوم اخذ فيه الظل يغرق الكروم واشجار الزيتون في ريف فلورنسا بكآبة صامتة جليلة . لكن الكآبة في هذا البلد ليست الا تفسيراً للجمال . وفي القطار الذي كان ينسل عبر المساء كنت اشعر بشيء ما تنحل عقدته في . أأستطيع ان اشك اليوم ان ذلك يسمى ، رغم وجه الكآبة ، السعادة ؟

جل ، ان الامثولة التي يصورها هؤلاء الرجال ، تغرق ايطاليا ايضاً في عطائها عن طريق مناظرها الطبيعية . لكن من السهل ان تفوتنـــا السعادة باعتبار انها غير مستحقة دائماً . كذلك شأن ايطاليا . ففتنتها ، وان كانت مفاجئة ، ليست فورية دوماً . انها تدعو ، اكثر من اي بلد آخر ، الى تعميق التجربة التي يبدو عليها للوهلة الاولى انهـــا تسلمها كاملة . ذلك انها فياضة بالشعر اولا لتخفي حقيقتها بمهارة اكبر . ان تعاويذها الاولى هي طقوس نسيان : اشجار الدفلى في موناكو ، جنوى المليئة بالزهور وروائح السمك ، والامسيات الزرق على الشاطىء الليجوري . واخيراً بيزا ومعها وجـــه من ايطاليا قد أضاع سحر الريفييرا السوقي قليلا . لكنها ما تزال سهلة المنال فلمَ لا نرتضي لهنيهة من الزمن بفتنتها الحسية . اما عني انا الذي لا يقسرني شيء حين اكون هنا (والمحروم من أفراح المسافر الملتاع لان تذكرة مخفضة السعر تقسرني على البقاء مدة من الزمن في المدينة « التي اختار ») ، فان صبري على الحب وعلى الفهم يبدو لي بلا حدود هذا المساء الاول الذي دخلت فيـه بيزا ، متعباً جائعـــاً ، فاستقبلتني على رصيف المحطة عشرة من مكبرات الصوت تزعق وتصب موجة من الاغاني العاطفية على جمهرة من الناس معظمهم من الشبان . انني اعرف من الان ما ينتظرني . فبعد هذا التوثب بالحياة ، ستأتي لحظة فريدة ، حين تغلق المقاهي ويستتب الصمت من جديد فجأة ، أمضي فيها من شوارع قصيرة ومعتمة نحو قلب المدينة . نهر الآرنو الاسود والذهبي ، الانصاب الصفر والخضر ، المدينة المقفرة ، كيف اصف هذه الحيلة المفاجئة والبارعة التي تنقلب بها بيزا الساعة العاشرة مساء الى ديكور غريب من الصمت ، والماء ، والحجارة . « كان ذلك في ليلة مماثلة ، يا جسيكا ! » . ها هي الآلهة تتجلى ، على هذا المسرح الوحيد من نوعـــه ، بصوت عشاق

شكسبير .. علينا ان نعرف كيف نرتضي بالحلم حين يرتضي الحلم بنا . انني اشعر من الان في اعماق هذا الليل الايطالي بالألحان الاولى لذلك النشيد الباطني الذي يأتي الناس الى هنا بحثاً عنه . غداً ، غداً فقط ، سيتآلف الريف مع الصباح. اما هذا المساء فهأنذا إله بين الآلهة، واما جسيكا التي تهرب من «خطى يحملها الحب » اضم صوتي الى صوت لورنزو لكن جسيكا ليست الا ذريعة ، ووثبة الحب هذه تتجاوزها . اجل ، اعتقد ذلك، فلورنزو لا يحبها بقدر ما يعترف لهـــا بالجميل لسماحها له بالحب . لكن لمَ افكر هذا المساء بعاشقي البندقية وانسى فيرونا ؟ ذلك ان لا شيء هنا ايضاً يدعو الى التعلق بعشاق تعساء . لا شيء باطل كأن يموت المرء من اجل حب . انما الحياة أجدر به . ولورنزو حياً خير من روميو دفيناً تحت الثرى ورغماً عن شجرة الورد فوق ضريحه . فكيف اذن لا ارقص في هذه الاعياد للحب الحي، وانام بعد الظهر على العشب الطفل في بيازا ديل ديومو ، بين الانصاب التي يتوفر الوقت دوماً لزيارتها ، واشرب من عيون المدينة حيث كان الماء ساخناً بعض الشيء لكن سلسبيلا، وارى من جديد وجه تلك المرأة التي كانت تضحك، بانفها الطويل وفمها المزهو . يجب ان نفهم فقط ان هذا الاعداد يهيء لإشراقات أسمى. انها المواكب المتألقة التي تقود مريدي ديونيزيوس الى ايلوزيس . انمـا في الفرح يحضر الانسان دروسه ، وحين يبلغ الجسد أسمى درجة من النشوة يضحي واعياً ويكرس اتحاده بسر مقدس رمزه الدم الاسود . وها هو نسيان الذات الذي انهله من حميا ايطاليا الاولى هذه ، يهيئني لهذا الدرس الذي يحررنا من الأمل ويخطفنا من ماضينا . يا لحقيقة اللحظة والجسم المزدوجة ، عند مشهد الجمال ، كيف لا نتعلق بهـــا كما نتشبث بالسعادة الوحيدة المنتظرة ، التي ستسحرنا ، لكن التي ستفنى في الوقت نفسه !

* * *

ليست المادية المنفرة هي المادية التي نظن، بل المادية التي تريد ان تجعلنا نعتبر بعض الأفكار الميتة وقائع حية ، وان تلفت الانتباه العنيد الصاحي ، الذي نخص به ما لا بد ان يموت فينا الى الأبد ، لتوجهه الى أساطير عقيمة . انني لأذكر انــــه اجتاحني شيء ما ، بفلورنسا ، في دير الموتى ، في سانتيسيما آنونزياتا حسبته عناء ولم يكن الا غضباً . كانت تمطر . وكنت أقرأ ما كتب على شواهد القبور والنذور . كان هذا أباً حنوناً وزوجاً وفياً . وكان ذاك ، على كونه خير الازواج ، تاجراً ذكياً . كانت هنا امرأة صبية ، مثال لكل الفضائل ، تتكلم الفرنسية « كأهلها » وهناك فتاة كانت معقد آمال ذويها . لكن لم يكن شيء من هذا يمسني . لقـــد رضخ جميعهم تقريباً ، حسب النقوش ، للموت ، وبلا ريب لأنهم كانوا يقبلون بسائر واجباتهم . ولقـــد غزا الأطفال اليوم المقبرة وراحوا يقفزون فوق الشواهد التي تريد أن تخلد فضائلهم . كان الليل قد أخذ يرخي سدوله ، فجلست على الأرض ، مسنداً ظهري الى عمود. وابتسم لي كاهن أثناء مروره . كان الارغن ، في الكنيسة ، يعزف بصوت أصم ، وكان اللون الدافىء لرسمه يعود للظهور أحياناً خلف صراخ الأطفال . كنت ، وأنا مستند الى العمود وحيـــداً ، أشبه بشخص أخذ بخناقه فهتف بإيمانه كملاذ أخير . كان كل شيء فيّ يحتج ضد مثل هذا الاستسلام . كانت النقوش تقول : « يجب » . لكن لا ، وكان تمردي على صواب . علي ان اقتفي أثر هذا الفرح الذي يمضي لا مبالياً لا يلوي على شيء كمسافر على الأرض ، خطوة خطوة . وكنت أقول لا لما سوى ذلك . كنت أقول لا بكل قواي وكانت الشواهد تعلمني ان لا جدوى من هذا وان الحياة هي « مع كل شمس شارقة شمس غاربة » . لكنني لا أزال الى اليوم لا أرى ما الذي تأخـــذه اللاجدوى من تمردي ، وان كنت أشعر شعوراً

واضحاً بما تضيف اليه .

على كل ، لم يكن هذا ما أريد قوله . كنت أريد ان أعانق عن قرب أكثر حقيقة كنت أشعر بها في قلب تمردي بالذات ، حقيقة كان ما قلته امتداداً لها ، حقيقة تبدأ من الورود البطيئة النضج لدير سانتا ماريا نوفيلا ، لتنتهي عند نساء فلورنسا في صبيحة الأحد تلك ، بأثدائهن الحرة تحت أثواب خفيفة وبشفاههن الندية . فعند زاوية كل كنيسة تبسط ، في يوم الأحد ذاك ، باقات من الزهور ، دسمة لامعة ، متلألئة بالماء . فأجد فيها نوعاً من « السذاجة » كما أجد فيها في الوقت نفسه مكافأة . ففي هذه الزهور ، كما في هاتيك النسوة ، ثراء سخي،وما كنت أجد ان الرغبة في هاتيك النسوة ، ثراء سخي ، وما كنت أجد ان الرغبة هاتيك تختلف كثيراً عن الطمع في تلك . ان القلب الطاهر نفسه يكفي لذلك . ولا أقول أن الرجل يشعر غالباً بطهارة قلبه . لكن واجبه ، في هذه اللحظة على الأقل ، ان يسمي ما طهره مثل هذا التطهير الفريد حقيقة ، حتى ولو كان هناك احتمال في ان تبدو هذه الحقيقة في أعين البعض تجديفاً ، كما كنت أفكر في ذلك اليوم ، كنت قد أمضيت الصباح في دير للرهبان الفرنسسكانيين، في فينيزولا ، مفعماً برائحة أشجار الغار . وقد مكثت لحظات طويلة في باحة صغيرة مكتظة بالزهور الحمر ، بالشمس ، بالنحل الأصفر والأسود ، كانت مسقاة خضراء مرمرية في إحدى الزوايا . وكنت قد زرت،قبل مجيئي ، صوامع الرهبان ، ورأيت طاولاتهم الصغيرة المزدانة بجمجمة ميت ، إن ذلك البستان يشهد الآن على أشواقهم . ثم عدت أدراجي الى فلورنسا . محاذياً التل الذي ينحدر نحو المدينة الواهبة نفسها بكل أشجار سروها كان يخيل إلي أن عظمة ا" تلك ، هاتيك النسوة وتلك الازهار كانت تبريراً لأولئك الرجال ، لم أكن

واثقاً من انها لم تكن أيضاً تبرير جميع البشر الذين يعرفون ان منتهى الفقر يعادل دوماً ترف العالم وغناه . كنت أشعر بايقاع واحد مشترك بين حياة هؤلاء الفرنسسكانيين ، المحبوسين بين الأعمدة والزهور وبين حياة الشبان الذين يمضون كل السنة تحت الشمس على ساحل بادوفاني في الجزائر . واذا كانوا يزهدون ، فانما ذلك من أجل حياة أعظم (لا من أجل حياة أخرى) . وربما كان هذا هو المعنى الحقيقي الوحيد على الأقل لكلمة « تجرد » . إن في التعري معنى دائماً من الحرية الجسمانية ، وهذا التآلف بين اليد والأزهار – هذا التفاهم الحي بين الأرض والانسان المتحرر من البشري – آه ! اني سأتخذه ديناً لي لو لم يكن بالأصل ديني . كلا ، ربما لم يكن في هذا تجديف اذا قلت ان الابتسامة الداخلية في وجوه القديس فرانسوا التي رسمها جيوتو تبرر من يستطيب السعادة . ذلك أن الأساطير للدين هي كالشعر للحقيقة ، أي انها أقنعة مضحكة يحجب بها هوى الحياة .

أأتمادى اكثر من ذلك ؟ ان الرجال أنفسهم الذين يعيشون في ، فينيزولا ، امام أزهار حمر يزينون صومعتهم بجمجمة تغذي تأملاتهم . فلورنسا عند نوافذهم والموت على طاولاتهم . إن بعض الاستمرار في اليأس قد يولد الفرح. إن الروح والدم ، عند بلوغ الحياة درجة معينة من الحرارة . يمتزجان ، ويعيشان بيسر على تناقضات ، غير مبالين بالواجب والايمان على السواء . إذن فلن أدهش اذا وجدت ان يداً حاذقة قد لخصت على أحد جدران بيزا مفهومها الغريب من الشرف على هذا النحو : « البرتو يفعل الحب مع اخته بالذات » . ولن أدهش اذا كانت ايطاليا موطن الحب السفاح ، أو على الأقل ، وهذا اكثر دلالة ، موطن الحب السفاح المعترف به . ذلك ان الطريق الذي يذهب من الجمال الى الخلود ملتو ، لكنه مؤكد . ان العقل ، بعد أن يأسره الجمال ، يبيت لا يتغذى إلا من العدم . وأمام هذه

المشاهد التي يضيق الصدر لعظمتها ، تكون كل فكرة من أفكاره نفياً للانسان . وسرعان ما يضحي الانسان أمام العالم ، بعد أن تولى هذا القدر من الاتهامات المرهقة نفيه وتمويهه وتشويهه ، مجرد لطخة ممسوخة لا تعرف من حقيقة إلا حقيقة سلبية ، أو لا تعرف إلا لون العالم ، أو شمسه . ان المشاهد التي بمثل هذا الصفاء مبيسة للروح وجمالها لا يطاق . ان هذه الأناجيل من الصخر ، والسماء ، والماء ، تقول ان لا شيء يبعث . وفي أغوار هذه الصحراء العظيمة على القلب ، تبدأ التجربة من الآن فصاعداً بالنسبة لرجال هذا البلد . أي عجب اذا كانت النفوس السامية امام مرأى النبل ، في الهواء المشبع بالجمال ، لا تقتنع بأن العظمة يمكن ان تتحد بالطيبة ؟ إن عقلاً بلا إله يجهز عليها يبحث عن إله فيما ينفيها .

لقد هتف بورجيا حين وصل الفاتيكان : « الآن وقد منحنا الله البابوية ، علينا أن نهرع الى التمتع بها » . ولقد فعل كما قال . ولقد أحسن القول إذ قال : علينا أن نهرع . إن في هذه الكلمة يأساً لا تعرفه إلا النفوس المفعمة .

ربما كنت مخطئاً ، ذلك انني بعد كل شيء كنت سعيداً في فلورنسا وكثيرون غيري قبلي . لكن ما السعادة إن لم تكن ذلك التجاوب البسيط بين كائن وبين الوجود الذي يعيشه ؟ وأي تجاوب شرعي يمكن ان يقيم وحدة الانسان والحياة إن لم يكن وعيه المزدوج لرغبته في البقاء ولقضاء الموت المقدر عليه ؟ اننا لنتعلم من ذلك على الأقل ألا نعتمد على أي شيء وأن نعتبر الحاضر الحقيقة الوحيدة الممنوحة لنا « علاوة » . انني أفهم ان يقال لي : ايطاليا ، البحر المتوسط ، أراضٍ عريقة كل شيء فيها على قدر الانسان . لكن أين اذن ، ألا أروني الطريق ؟ دعوني أفتح عيني لأبحث عن قدري وكفايتي ! أو بالأحرى بلى ، انني أرى : فينيزولا ، جميلة ، ومرافىء

الشمس . قدر الانسان ؟ الصمت والحجارة الميتة . وما سوى ذلك يخص التاريخ .

* * *

لكن ليس لي أن أقف هنا . ذلك انه لم يكتب ان السعادة منفصلة حتما عن التفاؤل . انها مرتبطة بالحب – وهذا ليس بالشيء نفسه . وانني اعرف أويقات وأماكن يمكن ان تظهر فيها السعادة لاذعة المرارة الى حد يفضل عليه معه وعدها . لكن هذا لأنه لم يكن لدي ، في تلك الاويقات أو تلك الأماكن ، ما فيه الكفاية من القلب لأحب ، أي كي لا أزهد . وما يجب ان أقوله هنا انما هو دخول الانسان في اعياد الارض والجمال . ذلك انه يتجرد امام ربه مما تبقى له من شخصية ، كما يتجرد المهتدي من آخر ثيابه قبل العماد . اجل ، ثمة سعادة أسمى تبدو فيها السعادة باطلة ، كنت ، في فلورنسا ، ارتقي بستان بوبولي ، حتى ابلغ هضبة اصل منها على جبل الزيتون ومشارف المدينة حتى الافق . كانت أشجار الزيتون ، فوق كل تل من تلك التلال ، شاحبة كأدخنة طفيفة ، ومن خلال الضباب الخفيف الذي تكونه كانت تنفصل فوارات اشجار السرو الصلبة ، الخضر من قريب والسود من بعيد . وكانت سحب غليظة تلطخ السماء التي كنت أرى زرقتها العميقة . ومع نهاية العصر ، كان يخيم نور لجيني يصبح فيه كل شيء صمتاً . كانت قمة التلال في الغيوم بادىء ذي بدء . لكن سرعان ما هب نسيم كنت أشعر بنفحة على وجهي . وتشتتت السحب معه ، خلف التلال ، كستار يفتح . وفي اللحظة عينها ، خيل إلي ان اشجار السرو في القمة قد تعاظم حجمها باندفاعها مرة واحدة في الزرقة التي انقشعت فجأة . وتصاعد معها متوئدة التل كله ومشهد اشجار الزيتون والصخور .

وجاءت سحب أخرى . وأسدل الستار . وهبط التــــل من جديد . بسروه وبيوته . ثم راح النسيم نفسه الذي فتح هنا ثنايا السحب الكثيفة يخيطها من جديد هناك ، بعيداً فوق تلال أخرى تتلاشى رويداً رويداً .

كان العالم، بتنفسه الكبير هذا، يرسل زفيره بين ثانية وأخرى ، فينبعث من هذا الزفير لحن متسلسل متباعد من الصخر والهواء على صعيد العالم . وفي كل مرة ، كان اللحن يخف توتره ، فأستميد المزيــد من الهدوء إذ أتتبعه من مسافة أبعد. وحين بلغت منتهى هذا المدى الذي كان قلبي ينفمل له، عانقت بنظرة خاطفة هرب التلال وهي تتنفس جميعاً معاً فكأنني عانقت معها نشيد الأرض قاطبة .

إن ملايين العيون ، اعرف ذلك ، قد تأملت هذا المشهد ، ولقد كان ، في نظري ، كبسمة السماء الأولى . كان يخرجني عن نفسي بالمعنى العميق لهذه الكلمة . كان يؤكد لي أن لا جدوى من أي شيء ، لولا حبي وصيحة الصخر الجميلة هذه . إن العالم جميل ، ولا سلام البتة خارجاً عنه. لقد كانت الحقيقة الكبرى التي يعلمني إياها بصبر أن الروح لا شيء ، وكذلك القلب نفسه . وان الصخر الذي تدفئه الشمس ، أو السرو الذي يتعاظم حجمـــه بانقشاع أديم السماء ، يحدوان العالم الوحيـــد الذي تتخذ فيه عبارة « أنّ يكون الانسان على حق » معنى: ان الطبيعة بدون بشر . وهذا العالم يلاشيني. يطل بي على النهاية . ينفيني بدون غضب . كنت اتجه ، في ذلك المساء الذي يخيم على ريف فلورنسا ، نحو حكمة كل شيء فيها قد طوع ، لو لم تغرورق عيناي بالدموع ولو لم ينسني النحيب الكبير للشعر الذي تطفح به نفسي حقيقة العالم .

* * *

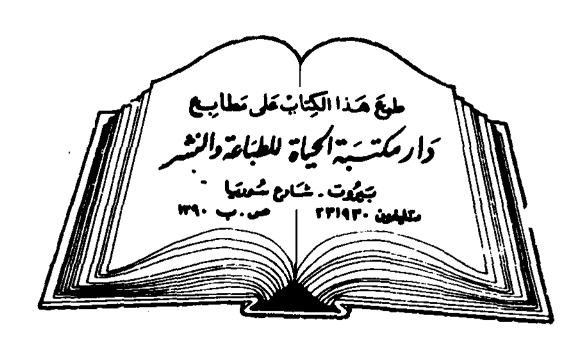
انما منذ هذا التأرجح يجب أن أتوقف: عند هذه اللحظة الفريدة التي تطرد فيهـا الروحانية الأخلاق ، وتولد السعادة من غياب الأمل ، وتجد الروح تبريرها في الجسد. واذا كان صحيحاً ان كل حقيقة تحمل معها مرارتها فصحيح أيضاً أن كل نفي يحتوي أيضاً على برعم « نعم » ويستطيع نشيد الحب هذا الذي يولد بلا أمل من التأمل أن يمثل أيضاً أنجع قواعد العمل . فمسيح بييرو ديلا فرانشسكا يخلو وجهه من أي نظرة انسانية، عند انبعاثه من القبر . وما من أثر من سعادة مرسوم على وجهه . انما فقط عظمة ضاربة لا روح لها ، لا استطيع منع نفسي من اعتبارها تصميماً على الحياة . ذلك أن الحكيم كالابله يعبر قليلاً . لقد خلبت لبي هذه العودة .

لكن هذه الأمثولة : أأنا مدين بها لايطاليا أم قد استخلصتها من قلبي ؟ لا ريب في انهـا تجلت لي هناك . لكن انما ذلك لأن ايطاليا ، كغيرها من الأمكنة الممتازة ، تقدم لي مشهد جمال يموت به البشر رغم ذلك . هنا أيضاً لا بد أن تفنى الحقيقـة وهل ثمة ما يهيج الوجد كهذا ؟ ماذا أستطيع أن أفعل بحقيقة لن تنتن ، وان كنت اتمناها ؟ انها تفوق مستواي . ولو احببتها لكان ذلك مني تكلفاً . ونادراً ما نفهم ان الانسان لا يتخلى بداعي اليأس ابداً عما كان تقوم عليه حياته. ان النزوات والقنوط تقود الى حيوات اخرى ولا تدل إلا على تعلق متخوف بدروس الحياة . لكن قد يحدث أن يشعر الانسان ، عند بلوغه درجة معينة ، من الصحو ، ان قلبه منغلق فيقلب ظهر المجن ، دون تمرد أو مطالبة ، لما كان يعتبره حتى تلك اللحظة حياته ، اعني اضطرابه . واذا كان رامبو قد انتهى في الحبشة دون ان يكتب سطراً واحداً ، فلم يكن ذلك حباً بالمغامرة ، أو زهداً في الكتابة . انما « كان ذلك هكذا » ، ولأننا نقبل في النهاية ، حين يبلغ وعينا درجة معينة ، بما

كنا نجتهد جميعاً في ألا نفهمه ، كل حسب طريقته . من المحسوس ان المقصود هنا الشروع برسم جغرافية لصحراء معينة . لكن هذه الصحراء الفريدة لا يشعر بها إلا من كان قادراً على الحياة دون أن يروي ظمأه بسراب ماء أبداً. وآنذاك ، آنذاك فقط ، تعمر بمياه للسعادة الحية .

تحت متناول يدي ، في بستان بوبولي ، تتدلى ثمار ذهبية عظيمة من ثمار الكاكي ، ينفلق لبها عن سلاف دسم . كنت ألتقط من هذا التل الرهيف الى هذه الثمار السيالة الرُب ، من الاخوّة الخفية التي تؤالفني مع العالم الى الجوع الذي يدفعني نحو اللحم البرتقالي فوق يدي ، ألتقط التأرجح الذي يقود بعض البشر من الزهد الى المتعة ومن التجرد الى الاسراف في اللذة . كنت أعجب ولا ازال بهذه الرابطة ، التي توحد الانسان بالعالم ، بهذا الانعكاس المزدوج الذي يمكن لقلبي ان يتدخل فيه ويملي سعادته الى حد معين فيستطيع العالم عندئذ ان ينجزها أو يهدمها . ايه فلورنسا ! انك من الامكنة القليلة في اوروبا التي فهمت فيها أنه في قلب تمردي يكمن رضوخ . لقد تعلمت ، تحت سمائها الممتزجة بالدموع والشمس ، كيف أرضخ للأرض واحترق في شعلة اعيادها القاتمة . كنت أشعر .. لكن أي كلمة ؟ أي فيض ؟ كيف أكرس تآلف الحب والتمرد ؟ الأرض ! في هذا المعبد الكبير الذي أقفر من آلهته ، تنتصب أصنامي جميعاً على قواعد من خزف .

الفهرس



طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت . شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠
ص.ب ١٣٩٠